



الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأوَنَد



الحق الضائع
وحدود الإيمان والعلم



قضايا معاصرة

الحق الضائع

وحدود الإيمان والعلم

.....

في تاريخ المعرفة معالم أساسية تتميز بها في زحمة العاملين على الفوز بها. ويأتي في مقدمة هذه المعالم أنّ الكثرة الساحقة من هؤلاء المتزاحمين تعلن عن إرادتها في معرفة الحقيقة أي في اكتشاف الحق وتمييزه من الباطل. فهم كما يكررون القول في كل مناسبة: نحن جنود الحق وأنصاره. نسعى إليه ونعمل على الفوز به. والحق واحد. فهو كالحقيقة العلمية الموضوعية التي يحددها الرقم أو لنقل الحساب الكمي. لكنّ الفرق بين الحق بعامة وهو الذي يجب أن يتعين في مجالات الفكر والسلوك والتنظيمات الاجتماعية كما يتعين في غيرها من المجالات المادية المحضة وبين الحقيقة العلمية المادية التي يحددها الرقم أو الحساب الكمي. إنّ الفرق بينهما هو أنّ الحق بعامة يتمرد في جوانبه النفسية والاجتماعية والسياسية وغيرها على الأرقام أما بسبب العجز الذي يشكو منه المنهج الموضوعي المادي وأما بسبب القصور الوقي لأصحاب هذا المنهج في الكشف عن الطريقة الفعالة التي يجب أن يستخدم هذا المنهج في ظلها.

والجدير بالذكر أنّ البشرية في كل الحضارات المتعاقبة بما فيها حضارتنا العربية الإسلامية قد حاولت ولا تزال تحاول الفوز باكتشاف الحق في زحمة الوقائع التي تواجهها والمشكلات التي تعترض سبيلها. وقد تعدد مفهوم الحق وتباينت أبعاده على الصورة التي أصبح بها لكل قوم بل لكل فئة من كل قوم، وأكاد أقول من كل جماعة صغيرة أو فرد واحد من كل فئة، حق خاص يغاير الحق عند الآخرين ويتعارض معه بحيث تعرض في واجهة التاريخ الطويل للحضارات البشرية صور وأبعاد للحق تتبلبل بها الألسنة وتضطرب بها الأفئدة والقلوب. وليس هذا وحسب بل أنّ حروباً دامية تنشب بين هذه الصور والأبعاد تنهار بها شعوب وتتساقط حضارات وتضيع بسببها جهود بشرية بذلت فيها أوقات وأموال ودماء كثيرة.

يحدث هذا كله رغم اتفاق كل مجموعة حضارية على منهج معين في التفكير وأسلوب خاص في السعي إلى معرفة الحق وتمييزه من الباطل. فقد كان للفراعنة القدماء ولأصحاب الحضارات التي ارتفعت معالمها في الشرق الأوسط ولا سيما تلك التي يستوعبها العالم العربي اليوم مناهجهم الخاصة في السعي إلى المعرفة لكنهم رغم وصفهم لهذه المناهج لم يتوصلوا إلى اكتشاف السلاح الذي يحقق لهم الموقف الواحد والرؤية المشتركة الشاملة أمام القضايا التي كانت تؤرقهم وتقض عليهم مضاجعهم. لقد اختلفوا في كل شيء أو في كل شيء خطير من أشياء حياتهم في تحديد أصل الخلق وفي التعريف بالآلهة التي يعبدون وفي تعيين الحسن والقبح وفي التمييز بين الخير والشر وفي التفريق بين الواقع والخيال. وبدلاً من أن يقتنع كل منهم بفساد المنهج الذي استعان به والتمس حدوده في السعي إلى المعرفة واتخاذ المواقف الحاسمة راح يصر على اتخاذ هذا المنهج ويتعصب له على نحو اختلطت فيه الأفكار الذاتية والأفكار النابعة من الخارج المادي. فالمنهج عند كل قوم من هؤلاء الأقوام هو القلعة التي يلجأ إليها ويجعل منها المكان الذي يتوهم فيه الإحساس بالأمن والسلامة ثم يعتبر قلاع الآخرين مصادر عدوان أو مواطن جهل أو موارد افساد وتخريب.

والشأن هو نفسه عند اليونانيين الذين حاولوا منذ القرن السادس قبل الميلاد أن يتحرروا من سلطان الأساطير التي كانت تستقل حتى ذلك الوقت بتقديم الإجابات المطلوبة عن عشرات أو مئات الأسئلة المطروحة من لدن أنفسهم أو من لدن الكون الذي يحيط بهم ويتحدى القلوب والأفئدة عندهم. وقد توصلوا بعد سلسلة من المحاولات يصعب إيجازها وتعدادها إلى وضع منهج في التفكير لحضّ قلم واحد من أكبر فلاسفتهم في سلسلة من الكتابات جمعت فيما يقال ما أطلق عليه اسم "علم المنطق" وقد قدر لهذا الفيلسوف الذي هو أرسطو، أن يضع فلسفته في ضوء هذا المنهج الفكري.

والواقع أنّ أرسطو لم يكتشف هذا المنهج مستقلاً عن سبقه بل كانت مهمته في الكثير جمع ما تفرق من أجزاءه ومتابعة المجادلات التي صدرت عن مفكرين سابقين أو معاصرين له فنظمها كلها في كتاب واحد سماه "كتاب المنطق". وقد زعم فيما زعم أنّ هذا المنطق هو الآلة التي تجنب الإنسان مغبة الوقوع في الخطأ وتصحيح للفكر مسيرته وأنّ من يهتدي بهديه لا يمكن أن يقع في الغلط. ومع ذلك فقد تعدد الحق عند من جاء بعده كما تعدد عند من جاء قبله فسقط في نظر بعضهم جانب أو أكثر من اهتماماته واختلفت النتائج التي توصل إليها كل منهم والتي اعتبرها ممثلة لما يعتقد أنّه الحق.

واستمرت البلبلة وتباينت وجهات النظر واحتربت الأفكار كما احتربت الأيدي والأسلحة باحترابها ثم انتهت ملحمة الحضارة اليونانية رغم الألوان الثقافية التي جاءتها من عالم غير علمها وظهرت في ضوءها فلسفات جديدة زعم كل من أصحابها أنه على الحق ومع الحق دون سواه.

وعندما ظهر الإسلام وانطلقت شعلته في العالم وخرجت مع هذه الشعلة قيم جديدة وعقائد وأفكار وأنواع مستحدثة من السلوك ومواقف جديدة من الكون والحياة نادى بسقوط الأساطير والأوهام التي كانت من ورائها لم يلبث أصحاب هذه الدعوة الجديدة حتى سقطوا فيما سقط السابقون الأوائل لأنهم عجزوا عن استيعاب المنهج الجديد لهذه الدعوة ولم يستطيعوا التحرر من مناهج القدماء وأساليبهم في التفكير. والملاحظ أن المفكرين وغيرهم من حاملي هذه الشعلة قد احتفظوا بالكثير من أفكار السحر القديم ومن طرائق التفكير اليوناني ومن موحيات الفلسفات المشرقية التي نتجت عن الاختلاط بين المنهج اليوناني والمنهج القديمة عند أصحابها. واختلفت مواقف هؤلاء المفكرين فمنهم من وضع فلسفة الأوائل على مستوى الفكر القرآني وحاول التوفيق بينهما دون أن يتنازل قيد أمثلة عن المسلمات التي كانت تنادي بها فلسفة الأوائل والأساليب التي كانت تستخدمها في الوصول إلى المعرفة. ومنهم من اقتبس منطق اليونان الأوسطي واستعان به في تعامله مع كتاب الله وبلغ من سلطان هذا المنطق عليهم أنهم لم يتورعوا عن تأويل الآيات القرآنية تأويلاً بعيداً جداً يتعارض مع ظاهر اللفظ وبساطة المعنى الذي تشتمل عليه هذه الآيات. وفي مقدمة هؤلاء المفكرين يأتي المعتزلة من علماء الكلام ومنهم أيضاً فريق خلط بين القيم القديمة بما فيها أوهام السحر والقداسات المصطنعة لبعض الناس وبين القيم القرآنية الواضحة البينة التي ترفض السحر وتؤكد الفصل التام المطلق بين الخالق والمخلوق. وقد تعددت مذاهب هذا الفريق من الناس بحيث يمكن أن تستوعب كلمة "الباطنية" مجموعهم وتدل إلى جملة الأنشطة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت تمثلهم. وتعاقت الأجيال والقرون حتى انتهت موجة الحضارة العربية الإسلامية وشاع فيها الجمود وانتشرت روح المحافظة وتغلب التقليد الأعمى على أصحابها حتى لم يعودوا يجرؤون على ممارسة الحرية في الاجتهاد والتخريج المستقلين في ظل الزعم القائل: "بأن الأول لم يترك لآخر شيئاً". فشاع ظلام الفكر وجمد الناس على ما كانوا عليه من الفرقة والاختلاف. وبدلاً من أن يكون القرآن مصدراً لحركة شابة فنية تستيقظ بها الطاقات الفكرية وقيمه الخلقية الرفيعة أصبح الولاء له مجرد ولاء طقسي. أي أن نصوصه قد أصبحت مادة لفظية للتبرك لا للتدبر. والوحي السماوي نفسه قد أنكر على المؤمنين برسالة الإسلام هذا النحو من التعامل مع القرآن في قوله عز وجل: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .." وهذا كما نرى إعلان عن أن المعرفة في حاجة إلى بصيرة واعية قادرة على استيعاب

الجوانب المتعددة للرؤية القرآنية وهي البصيرة التي افتقدها العالم الإسلامي منذ توقفت مسيرة الإبداع والتفكير عند قياداته وطبقاته المختلفة.

والظاهرة نفسها هي التي تواجهنا حين نسلط الضوء على الحضارة الغربية التي تفرض حتى اليوم فكرها وقيمتها وطرز العيش فيها وإنجازاتها المادية لا على أمم الغرب وحدها بل على العالم كله. فقد اقتنع المفكرون الغربيون بعد خروجهم من ظلمات القرون الوسطى أنهم في حاجة إلى بنية حضارية مغايرة لبنية هذه القرون البائدة وأنّ هذه البنية لا تتحدد أبعادها ولا تتعين قيمها إلا بفضل منهج جديد في التفكير وطريقة جديدة في التعامل مع مواطن المعرفة.

فكان المنهج الوضعي أو لنقل الواقعي هو الذي اختاره العالم الغربي. وقد وضع فرنسيس بيكون أحجار الأساس له وأعلن أنّ المعرفة والقوة متلازمتان. وأنّ مادة هذه المعرفة هي الواقع المادي الذي يحيط بالإنسان من كل مكان. وأنّ استيعاب هذه المادة لا يتم إلا بحساب الكم. وهكذا آمن هذا العالم الغربي بأنّ الحق لا يكتشف إلا بفضل العلاقات المادية الثابتة بين جزئيات هذه المادة. وليس هذا وحسب فقد مضت أجيال بعد فرنسيس بيكون نادى فيها أوغست كومت بأنّ المنهج الوضعي لا يطبق فقط على الجانب المادي وحسب بل على الجوانب الإنسانية وفي مقدمتها الجانب الاجتماعي. وبالرغم من الإنجازات المادية الضخمة التي تمثلت في عالم التكنولوجيا فقد تلبلت الألسنة واضطربت الأفكار وتعارضت مفهومات الحق عند أقوام هذا العالم الغربي. ومما يلفت النظر أنّ تعاقب الأيام حتى عصرنا الحاضر الذي نقترّب فيه من نهاية القرن العشرين يسجل المزيد من البلبلة والاختلافات ويسلط الضوء على المزيد من المزاعم التي يؤكد كل منها أنّه صاحب الحق دون سواه. ولا شيء في يومنا الحاضر يدل إلى توصل البشرية في ظل هذا المنهج الوضعي إلى موقف تنتهي به الخلافات وترتفع به أسباب الخصومات وتتوحد بفضلها فكرة الحق. إنّ بأس الناس في عالم هذه الحضارة بأس شديد بينهم به يقتتلون ويحتربون ويتنازعون الأولوية في استغلال العالم كله.

والأخطار التي يواجهها عالم الحضارة الغربية رغم الإنجازات التكنولوجية والعلمية التي لا سابقة لها لا تقل في تهديدها لسلامة العالم عن تلك التي واجهتها كل الحضارات السابقة. فالأفكار فيها مبلبلة والنزعات نحو التشاؤم والقلق على المصير نامية منتشرة والهروب من مواجهة المشكلات تتمثل في جملة من الانحرافات السياسية والخلقية والاجتماعية والفكرية. أما الانحرافات السياسية فتبدو في استمرار خطط التآمر والعدوان على كل ضعيف ناهيك عن الأقوياء.. وأما الانحرافات الخلقية فتظهر في سقوط القيم الرفيعة وهيمنة المصالح المادية الضيقة وطغيان الشهوات التي من بينها ما يسمى الحرية عن طريق الجنس. وأما الانحرافات الاجتماعية فهي ظاهرة في

انخيار الأسرة وفي ميدان التكافل الاجتماعي حيث تتفجر الصراعات الطبقية. وأخيراً الانحرافات الفكرية التي تعلن عن ضياع ثقة الإنسان بالإنسان والقدر وشيوع روح التشاؤم والمناداة باللامعقولية في الكون والطبيعة والحياة. والآداب الغربية الحديثة حافلة بهذه الأفكار والاتجاهات المتشائمة التي فقد فيها الإنسان إيمانه بالخير والحب وما نطلق عليه اسم "العناية الإلهية" ..

وإذاً فنحن أمام وقائع دافعة تؤكد لنا ونحن نستعرض تاريخ خمسين قرناً على الأقل من حياة البشرية أن كل المناهج التي التزمت لها الحضارات القديمة والحديثة لم توفق إلى تحقيق وحدة في المعرفة ولم يليق أصحابها عند رؤية موحدة للحق ولم تنتف أسباب الاقتتال والاحتراب.

فما الذي يجب أن نقره؟ هل نقرر إفلاس الإنسان بصورة نهائية ونعلن أن شريعة الغاب بكل أبعادها هي القاعدة.. أم أن الأمل في الخلاص النسبي على الأقل لا يزال ضرورة أساسية للعمل وسبيلاً ممكنة للتوصل إلى الحق؟

أما نحن فإننا لم نفقد هذا الأمل.. لأننا إذا فقدناه فقد فقدنا مبرر وجودنا والدافع الوحيد إلى التحرك والعمل. لكن هذا لا يمنعنا من أن نستبين موطن أو مواطن الخلل في فكر الإنسان ودوافع السلوك عنده. إن الخطيئة الكبرى أن الإنسان حتى اليوم يرفض الاعتراف بحقيقة أساسية هي أنه حصيلة توازنات. والتوازنات هذه هي التي تتحقق بها تناقضاته الداخلية. لقد ارتكب خطيئة مميتة حين جعل من الخيال منهج معرفته.. وتكررت الخطيئة حين جعل مما يسمى المنطق العقلي فقط منهج معرفة.. ثم تكررت مرة ثالثة حين تنازعت منهج القدماء وقصر عن إدراك ظاهرة التوازن التي جاء بها القرآن الكريم.. وأخيراً تكررت للمرة الرابعة حين أصر على اعتبار الملاحظة والتجربة المادية منهجاً للمعرفة. وكانت الخطيئة الدائمة التي رافقت كل هذه الخطيئات نابعة من سوء فهمه لقضية الإيمان. ذلك أن هذا الإيمان اختلط بالسحر في بعض الأوقات وضاع في متاهات المنطق الصوري في بعضها الآخر.. وكاد يختفي أو ينعزل تماماً حين ظهرت مسيرات الفكر الوضعي. وبدلاً من أن يكون الإيمان عند الإنسان ضماناً تحول دون التسرع في التفلسف وإصدار الأفكار النهائية بشأن القضايا الكبرى التي تواجه صاحبه فقد وضع في الدرجة الثانية وحلت التأملات المبشرة والآراء المرتجلة النابعة من التجارب القاصرة في المحل الأول.

ولما كانت هذه الآراء وتلك التأملات حصيلة مناهج تعجز عن رؤية ظاهرة التوازن في تكوين الخلق كلهم فإنها لم تلبث أن سقطت على التتابع ينكر اللاحق منها سابقه ثم تعقبه فلسفات اليأس وأخلاق التشاؤم مع كل مغرب حضارة وتنتهي بها ملحمة كل حضارة من الحضارات.

إنّ المطلوب هو إعادة النظر في مفهوم الإيمان بحيث لا يتعارض مع حرية الإنسان في التفكير والبحث عن الجديد واكتشاف أسرار الكون والطبيعة والحياة. إنّ الإيمان الحقيقي لا يعني التوقف عند اجتهادات معينة سادت في عصر من العصور. ولا يعني الامتناع عن اقتحام المجهول في كل مكان وعلى كل مستوى من المستويات بل يعني شيئاً واحداً هو الحيلولة دون أن يصبح الإنسان ضحية رؤية عارضة قد تتناقض في الظاهر مع حدود هذا الإيمان. فالعلم يعني التعامل مع الطبيعة.. والعلم يعني مراقبة النفوس. والعلم يعني الاحتفاظ بالتوازن النفسي والجسدي لكن العلم لا يعني أبداً أن نخضع لأدواته ومناهجه ما يتجاوزه في أبعاده وقيمه.. العلم ننتفع به ونحن نتعامل مع الخلق كلهم أما أن يصبح منطلقاً لفلسفات متحررة من الإيمان فهنا موطن الخطر ومصدر البلبلة والضياغ.